

هواجس بركات القومية في نصه الروائي

رواية فقهاء الظلام نموذجاً

أ.د. محمد جواد حبيب* و م.د. حسين أحمد سيتو*

تأريخ القبول: ٢٠١٩/٩/١٦

تأريخ التقديم: ٢٠١٩/٨/٢٠

المستخلص:

يعمد سليم بركات إلى تفكيك هواجسه القومية في نصه الروائي (فقهاء الظلام)، من خلال محاور عدة فيها؛ والتي: تتضمن انتماء الإنسان إلى مجموعة محددة من الناس أولاً، وبقعة الأرض التي يقيمون عليها ثانياً؛ واللغة الأم التي يتكلمون بها، أو هي لغتهم ثالثاً، والإنسان من جهة ارتباطه بالأرض؛ ومشاعره وأهوائه وتطلعاته رابعاً، فضلاً عن دلالاته للأسماء الكوردية للأشخاص؛ والأسماء الأصلية للأمكنة.

وتُعد القومية مجموعة من العناصر المتداخلة فيما بينها لتكوين وعي ثقافي يحمل عناصر قوميته، ويعمد إلى هدف وغاية محددة؛ خالقاً بذلك مجتمعاً مثالياً في عقيدته وتفكيره ويجاهد إلى تحقيقه؛ وهذه الجماعة تحمل ذات الصفات والاهتمامات، وتعتمد إلى خلق تكويني متكامل لتلك الجماعة.

وجدلية بركات للقومية لها ترابطية وثيقة مع اللغة، إذ لا قومية دون لغة الأم، ولا لغة أم دون قومية، لأنّ الوجود التاريخي لكل أمة يعتمد على لغتها القومية "اللغة الأم"، وبدون ذلك يتلاشى أحد أهم مكوناتها وركائزها الأساسية في الوجود. ولا بُدّ من وجود أرض تسكنها هذه الجماعة؛ وبذلك تُعد الأرض مكوناً آخر مهم من مكوناتها الأساسية، وعنصراً فاعلاً من عناصر القومية. إذ إنّ فقدان أي عنصر من هذه العناصر يُعد انتهاكاً، واعتداءً على بقية العناصر المكونة للهوية القومية، وعلى وجودها وضياعها.

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية / جامعة البصرة .

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية الأساسية/ جامعة زاخو .

وقد عمل بركات في نصه الروائي (فقهاء الظلام) إلى البحث عن قوميته المهددة بالذوبان في مجموعة من القوميات التي تعيش فيها مجزأة؛ كما هي الحال في معظم أعماله الروائية، إذ عمد إلى الاستعانة بالأسماء التي تدل على ضياع الإنسان الكوردي، "بيناف؛ وبيكه س"، وإلى اللغة الأم كأحد المقومات للهوية القومية؛ فحاول بعث لغته الأم، التي حاول الآخرون طمسها وضياعها، كما عمد إلى الترابط بين عناصر القومية ولغتها؛ وذلك لكون اللغة هوية قومية ناطقة يمكن من خلالها معرفة الآخر؛ الذي يُقابلة الإنسان، هويته الواضحة والتي يمكن اكتشافها أول الأمر من لغته. ويحمل هموم شعبه كلها من خلال تنقله في عدة أقطار؛ والتي كانت أرضاً لقوميته، محاولاً بذلك إثبات إنّه وطن واحد، ولو تجزّء إلى أوصالٍ عدة سكنها الغرياء عن هذه الأمة تحت مسمى وحدة الوطن؛ والذي لا يحق للكورد امتلاك أو حتى العيش في أرضهم الذي ولدوا عليه أو تربوا فيها. وتشغل القضية الكردية جانباً مهماً من الأعمال النثرية لبركات، وربما كانت الكتابات المُعنونة بـ: سيرة الصبا؛ فقهاء الظلام؛ الريش؛ هي أبرز ما يعكس معاناة الكورد في مناطقهم المجزأة؛ ووعيمهم لقضيتهم، وقد اصطنع بركات لغة شعرية شفافة استتطق بها الشجر والحجر والطير، وأدار معها حواراً أسهم ببراعته الفائقة في رسم إنسانية تلك الموجودات رسماً متقناً. وتجري أحداث رواياته في قرى صغيرة تمثل نموذجاً لأرض كوردية واسعة، حيث يشرع بركات في سرد الأحداث شروعاً طبيعياً ومألوفاً لأناسٍ تتجاذبهم سلوكيات مخصصة ومصالح معينة، وهو الكاتب والشاعر الكوردي الذي ولد في قرية سكانها من الكورد وهو في صغره لا يجيد غير لغته الأم.

مقدمة:

إنّ الدافع الأساسي الذي جعلني أختار الهاجس القومي عند بركات لشدة تعلقه بها التي طالما تغنى بها؛ وكرس معظم أعماله الروائية للبحث عن هذه القومية، والتي يعدّها هدفه الأساس في أكثر أعماله الأدبية، ويختار أبطاله من طبقات مختلفة، فهم مترجمون لنصوص بلغاتٍ أخرى إلى اللغة الكوردية- كما في رواية -دلشاد- أو أصحاب مكانة في مجتمعهم الصغير على غرار القرية-

كما في فقهاء الظلام-، ويختار لهم أسماء كوردية ذات دلالات رمزية تدل على مدى اهتمامه بقومه؛ ويعمد إلى إصاق هذه الأسماء بقضيته الكبرى، وهي انبعاث كردستان من جديد.

إنَّ الهاجس عبارة عن داخلي للكاتب يعيش فيها؛ وشعوره هذا متداخل في وجدانه لبعث الهوية القومية؛ ولتراتبية هذه الهوية القومية عند بركات عمد الباحث إلى تقسيم مكوناتها على وفق نظام ترتيب عملية الدخول إلى تراتبية الهوية القومية من حيث المفهوم الوارد عند بركات في نصوصه الروائية، حيث إنَّ الأدب ينتقل باللغة من وصفها اليومي المتداول، والسطحي إلى بعدها التشفيري الترميزي وذلك بإخضاع اللغة إلى آلياته البلاغية والرمزية والتلويح والإيحاء وإلى طرائق تكوين الشفرة وكيفية تفكيكها، وتكثيف الأصوات، وهذا ما يؤدي باللغة التداولية المعجمية أن تكتسب التعدد الدلالي والتعتيم والألغاز؛ وهذا ما يستدعي منا تشغيل آليات تفسير النص الأدبي وتأويله. ولأنَّ بركات يستخدم تمويهً دلاليًا لقارئه؛ ويعمد إلى فك هذا التمويه للوصول إلى آلياته المعتمدة في تشغيل دلالاته لتوضيح مقصديته للهوية. عمد الباحث إلى تقسيم البحث على مقدمة بيِّن فيه طريقتَه في البحث وتمهيد، حيث جرَّء التمهيد إلى تعريف التمويه وأسباب الصاقها بالهوية القومية؛ والمبررات التي جعلته يقوم بها؛ وقسم البحث على محورين اثنين، هما:

المحور الأول: هاجس الوجود، ويتضمن:

١، المكان.

٢، اللغة.

٣، الثقافة القومية.

٤. دلالة الأسماء.

المحور الثاني: الهوية القومية عند بركات في رواية (فقهاء الظلام).

ثم اتبعها بخاتمة لخلاصة البحث، مع نهاية بذكر المصادر والمراجع والهوامش.

تمهيد: تعريف الهاجس:

الهاجسُ خاطر يقال هَجَسَ في صدرِي شيء أي حدس بمعنى وقع وخطر وهو غير معروف بهذا المعنى ... وتعريفه خاطر الذي يدور في خلدِه وفي نفسه؛ والذي يعيش في داخله، ولمحاجة القارئ بمعرفة ما هو مخفي في ذهنه ويحيله إلى نصه للوصول إلى مستوى معرفة المؤلف من خلال تفسير هذه الهواجس النصية الموهَّمة والمقسَّمة. إذ تستند إلى مستويات سيميائية يمكن التعرف عليها من خلال هذه التقسيمات. والهوية القومية تحوي في داخلها هواجس عدة؛ على المتلقي تفكيكها وظهارها عبر هذه الهواجس، والتي تحوي دلائل كبيرة في فهم مقصدية الكاتب؛ وللولوج إلى داخل نصه المبهم في بدايته، ولترتيب عناصر الهوية القومية عند بركات الذي يحمل هموم هذه الهوية في كثير من أعماله الروائية ومنها هذا النموذج المختار (فقهاء الظلام).
الهوية بين اللغة والاصطلاح:

الهوية - كما جاء في المعاجم اللغوية: «حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية وذلك منسوب الى هو وهي في الوقت نفسه ما يشخص الذات ويميزها عن الغير وتعبّر عن خاصية المطابقة اي مطابقة الشيء لنفسه ولمثيله.

وفي المصطلح الحديث ورد عند عدد من النقاد؛ إنّ مصطلح الهوية: مشتق من أصل لاتيني يفيد أنّ الشيء هو نفسه و ليس شيئاً آخر، بعبارة أخرى أنّ الموجود هو ذاته أو ما هو عليه، أي أنّ هوية الشيء = ما هيته^(١).

وتعرف أيضاً: بأنّها إحساس بالذات ينشأ حينما يبدأ الطفل بتمييز والديه وعائلته و يأخذ موقعه في المجتمع^(٢)، هذا ما جاء في تعريف الهوية لغة واصطلاحاً، إذ إنّ الهوية مصطلح حديث لا تدل معانيه في المعاجم على المعنى المصطلحي الحديث.

(١) اللغة العربية و أسئلة العصر، عيسى برهومة، و وليد العناتي، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠٧: ٥٥.

(٢) اللغة هوية ناطقة، د. عبدالله البريدي، كتاب المجلة العربية، ١٩٧، الرياض، ١٤٣٤: ٧٦.

الهوية القومية كائن حي:

والهوية القومية كيان قائم منذ الأزل، وهي تصير وتتطور نتيجة الانتشار والانكماش، وليست معطى جاهزاً ونهائياً، ويتكون هذان الاتجاهان طبقاً لمعاناة أهلها وتطورهم.

وهي عبارة عن هوية لها استقلالها وتميُّزها الخاص بها، وهي عبارة عن (الأنا)؛ ولها مشتركات مع (الآخر) داخل المجتمع نفسه المتعدد الهويات، ولكن هذا لا يمنع تمييز هويته القومية مع الآخر.

الهوية القومية داخل المجتمع الواحد:

وتحتوي كل شعب من الشعوب على افرزات الهوية من منابع ثلاث: الهوية الفردية والهوية الجمعية والهوية الوطنية والتي قد تكون في الوقت نفسه قومية، ودعاة القومية في داخل المجتمع الواحد لا يُعد انتهاكاً لهذا المجتمع؛ بل هو تعزيز له، بحيث لا تتعارض الهوية الوطنية مع الهوية القومية، إذ تُعد الهوية الوطنية والهوية القومية شيئاً واحداً ما دمنا نؤمن بوطن واحد رغم تعدد قومياته، ويعتمد تشكل الهوية الوطنية على ثلاثة عوامل مهمة، لا غنى عنها هي: المجتمع والمكان والزمان، وتتفاعل هذه العوامل الثلاثة حتى تتبلور وترسخ وتستمر إذ لا هوية دون مجتمع بشري متجانس في كثير من السمات والصفات والخصائص واشترآكه في الكثير من الصلات، كالعرق واللغة وتبادل المنافع ودوام الاحتكاك والتواصل والتفاعل (١).

المحور الأول: هاجس الوجود

أولاً: المكان:

ويعد المكان الذي يستوطنه المجموعة الواحدة ويعيشون فيه، ويزاولون فيه أنشطتهم وفعاليتهم على أرضه، وهو على أرضٍ يكون: "إزاء تفتيت جسد المكان/ الوطن ونسف كينونة الإنسان فيه، لأبْد من وقفة لا بُدَّ من موقف مكاني

(١) ينظر: المصدر نفسه، ٨.

هواجس بركات القومية في نصه الروائي رواية فقهاء الغلام نموذجاً أ.د. محمد جواد حبيب و م.د. حسين أحمد سيتو يُفلسف تاريخ المكان بتعدد هوياته في وجه الهوية الواحدة^(١)، إذ يتفاعلون معه، حتى ينشأ من هذا التفاعل بيئة لها خصائصها المميزة، وحيث إن لكل بيئة سماتها وصفاتها الطبيعية التي تؤثر على طبائع سكانها، وللسكان تأثيراتهم الخاصة على بيئتهم، ومن هذه المؤثرات المشتركة تتشكل هوية السكان القومية، وهوية المكان.

ولترسيخ الهوية وتجذرها في نفوس هذا الشعب؛ نحتاج الى الوقت والزمان، ولهذا فإنَّ البعد الزمني مهم لتشكيل الهوية سواءً أكانت وطنية او قومية، ولهذا السبب كان من الضروري لأيِّ شعبٍ أن يبحث عن جذور هوياته الوطنية أو القومية في ماضيها، إذ إنَّ العامل التاريخي له أهميته في البحث عن هويته القومية^(٢).

ثانياً: هاجس اللغة

لا تكتفي القومية بهذه العناصر فقط؛ بل لها هواجس أخرى لا تقل أهمية من الهواجس السابقة، وقد تكون أكثر منها، وذلك هو هاجس اللغة التي تتجسّد في عنوان الوجود والهوية، وهي المستودع الأمين الذي تختزن به مقومات الانتماء، وذاكرة المستقبل. وذلك لأنَّ اللغة هوية، وليست "الهوية" لغةً، إذ تُعد اللغة من أهم هذه المقومات، وأشدها خصباً وعمقاً وتركيباً. إن العلاقة بين اللغة والقومية هي علاقة الخاص بالعام، فالقومية أعم من اللغة؛ لأن القومية لها تجليات عديدة غير "اللغة" إذ إنَّ الهوية القومية: (ببساطة متناهية ليست سوى تلك القواسم المشتركة أو القدر المتفق عليه بين مجموعة من الناس، ذلك الذي يميزهم ويوحدهم)^(٣)، وليست اللغة وحدها التي تقوم بهذه المهمة، بل هناك

(١) يُنظر: سياسة جديدة في الهوية، بيكو ريك، ترجمة حسن محمد فتحي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٦ فما فوق.

(٢) شعرية المكان في الرواية الجديدة، د. خالد حسين حسين، كتاب الرياض، العدد ٨٣، الرياض، ٢٠٠٠: ١٩٧.

(٣) اللغة والهوية، اشكالات المفاهيم وجدلية العلاقات، د. فيصل الحفيان، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف، عُمان، العدد ٥، ٢٠٠٤.

مقومات أخرى؛ وهذا يعيدنا إلى المقومات الأخرى للهوية القومية التي تناولناها سابقاً.

ولما كانت ولا تزال اللغة هي أساس وحدة الأمم واستمرار وجودها؛ وهي التي تربط الحضارات بعضها ببعض، وهي التي تخلّد فإنّ اللغة هي المفتاح المستقبلي الذي يربط الماضي بالمستقبل وتكوّن إرادة الأمة؛ فالثقافات تتحاور وتتداخل بوساطة اللغة، وكذلك تتداخل مع بعضها البعض وحتى تتلاقح، وهذا هو حال اللغة؛ بل هناك أيضاً لغة تهيمن على الأخرى؛ يقول ابن خلدون: إن المغلوب مولع أبداً بالاقتراء في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك الاقتراء، أو لما تراه، والله أعلم، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب^(١)، ومن هنا تكمن الهيمنة؛ هيمنة اللغة، فالقوة تكمن باللغة في الأساس، فالمغلوب يتبع الغالب ويقلده، ويبقى مبهوراً به، متأثراً به من الناحية اللغوية والثقافية والسلوكية وحتى في الزي كما يقول ابن خلدون، فاللغة المهيمنة هي لغة الدولة المهيمنة.

اللغة ومخرجات الحضارة:

ولا تكون الهيمنة على اللغة فقط؛ بل تتعدى هذه الهيمنة بالسيطرة على مخرجات العلم والبحث العلمي والتقني، والمفاهيم الاصطلاحية، وعلى إبقاء حالة من التبعية اللغوية والعلمية والفكرية، وبالتالي تعتمد إلى ذوبان لغة الأم في اللغة المهيمنة، وتعتمد إلى إنهاء وجودها كلغة مستقلة ولا يكون هناك أي نوع من

(١) المقدمة، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي،

هواجس بركات القومية في نصه الروائي رواية فقهاء الغلام نموذجاً أ.د. محمد جواد حبيب و م.د. حسين أحمد سيتو
التطور أو الإبداع بسبب التبعية/ الهيمنة إلا إذا قامت اللغة الأم بالسيطرة على
المفاهيم والتدريس من خلال لغتها القومية (لغة الأم) (١) .
ثالثاً: الهوية القومية الثقافية:

لا تكتمل الهوية الثقافية ولا تبرز خصوصيتها الحضارية إلا إذا تجسدت
مرجعيتها في لغتها وتاريخها واستقلالية خصوصيتها الحضارية بلغتها الأم.
وهذه الهوية تكون عادة مركبة من معايير خاصة ذات اهتمام مشترك
لكل المجموعة التي تحمل لغتها وشفرتها الثقافية؛ وتحيل أصولها إلى مرجعيات
وسمات متداخلة ومتناسقة أحياناً أخرى، إذ: "تحدد هوية مركب كيميائي
بالعناصر الأولية المكونة له، وبالعلاقات الأساسية التي تقوم بين هذه العناصر،
وبالبنية التنظيمية الخاصة بالمركب" (٢).

ومما يبدو أن بركات سعى قصدياً في منجزه الروائي إلى تداخل كل هذه
الهواجس في إبراز الهوية القومية التي يحلم بها كل الكورد؛ ولم يكتف بهاجس
واحد من هواجسه التي تحملها الهوية القومية، فهو يربط اللغة كمعيار أساسي
من معايير القومية، ويربط اللغة بارتباط السكان بأرضهم وتفاعلهم مع هذه
الأرض، وعدم اعتبارها عنصراً ثانوياً من عناصر القومية، فضلاً عن احتواء كل
الهواجس عند بركات في بودقة واحدة أسماها "الهوية القومية" التي هي حلمه منذ
بداياته الأولى.

ويعمد بركات من خلال هاجسه لعناصر الهوية القومية إلى معرفة
القارئ بقصدية المؤلف/ النص، من حيث: "فهم النصوص وتفسيرها من خلال
حلّ الشفرات" (٣)؛ وهذا يعني، تعامل القارئ مع النص للبحث عن الشفرات
المختلفة التي يتأسس عليها النص من شفرات أيديولوجية وجمالية ومهيمنة .

(١) الهيمنة اللغوية، روبرت فليبسون، ترجمة د. سعد هادي الحشاش، جامعة الملك سعود، الرياض
المملكة العربية السعودية، ٢٠١٢ : ٨٥-٨٦ .

(٢) الهوية، اليكس ميكشلي، ترجمة د. علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، ١٩٩٣ : ١٦ .

(٣) أسس السيميائية، دانيال تشاندلر، ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨
: ٢٩٢ .

عمد بركات في ذكر الأسماء في منجزه؛ إلى أسماء تدل على ضياع الإنسان الكوردي، مثل: (بيناف؛ ويكه س)، وتعمد في نصه الروائي إلى أن السكان في روايته يتكلمون باللغة الأم والتي تُعد كأحد المقومات الأساسية القومية للهوية؛ وعمل على بعث هذه اللغة التي حاول الآخرون طمسها وضياعها، ويعمد بركات في نصه الروائي إلى الترابط بين أمكنة الهوية القومية وتعلق أهلها بها، والزمن الذي عاشوه فيه مع ما فيها من صعاب لأجوائها الباردة، فضلاً عن تعلق أهلها بلغتهم؛ وذلك لكون اللغة هوية ناطقة يمكن من خلالها معرفة هوية الآخر؛ الذي يُقابله الإنسان، هويته الواضحة والتي يمكن اكتشاف ناطقتها أول الأمر من لغته. ويحمل هموم شعبه كلها من خلال تنقله في عدة أقطار؛ والتي كانت أرضاً لقوميته، محاولاً بذلك إثبات إنّه وطن واحد، وبركات لم يذكر أرضاً لبلد واحد؛ لكنّه ذكرها موحدة، على الرُغم من تجزئته إلى أوصالٍ عدة سكنها الغرياء عن هذه الأمة تحت مسمى وحدة الوطن؛ والذي لا يحق للكورد امتلاك أو حتى العيش في أرضهم التي ولدوا عليها أو تربوا فيها. وتشغل القضية الكردية جانباً مهماً من الأعمال النثرية لبركات، وربما كانت الكتابات المُعنونة بـ: سيرة الصبا؛ فقهاء الظلام؛ الريش؛ هي أبرز ما يعكس معاناة الكورد في مناطقهم المجزأة؛ ووعيهم لقضيتهم، وقد اصطنع بركات لغة شعرية شفافة استتطق بها الشجر والحجر والطير، وأدار معها حواراً أسهم ببراعته الفائقة في رسم إنسانية تلك الموجودات رسماً متقناً. وتجري أحداث رواياته في قرى صغيرة تمثل نموذجاً لأرض كوردية واسعة، حيث يشرع بركات في سرد الأحداث شروغاً طبيعياً ومألوفاً لأناسٍ تتجاذبهم سلوكيات مخصصة ومصالح معينة، وهو الكاتب والشاعر الكوردي الذي ولد في قرية سكانها من الكورد وهو في صغره لا يجيد غير لغته الأم.

وتُعد الهوية القومية مجموعة من العناصر المتداخلة فيما بينها لتكوين وعي مؤمن بهدف وغاية محددة؛ خالفاً بذلك مجتمعاً؛ أو جماعة تحمل الصفات والاهتمامات ذاتها، وتعمل إلى خلق تكوينيٍّ متكامل لتلك الجماعة بعيداً عن اهتمام الآخرين الذين لديهم ميولٌ أخرى تتنافى وميول هذه الجماعة المنضوية

هواجس بركات القومية في نصه الروائي رواية فقهاء الظلام نموذجاً أ.د. محمد جواد حبيب و م.د. حسين أحمد سيتو

تحت ميولٍ موحدة، وتعمد إلى الدفاع عنها وتكوين ثقافة واحدة فاعلة تسهم في خلق دافعية قوية بين أفراد الجماعة لتقويتها وتقوية أواصر المحبة بينهم.

المحور الثاني: هاجس القومية عند بركات في رواية (فقهاء الظلام)

استهل بركات روايته (فقهاء الظلام) بمشهد يعيشها السكان في قرية نائية في الشمال السوري؛ هي نقطة التقاء حدود سوريا والعراق وتركيا؛ موقعاً ذات مغزى دلالي كبير، فهذه المنطقة هي محور وجود الكورد على الخريطة؛ وتدور حوادثها في " القامشلي "؛ أو كما يسميها أهلها الأصليين "قامشلو" هذه المدينة، التي تبعد أمتاراً قليلة عن الحدود التركية، المحاطة بسياح من الأسلاك وأرضها مزروعة بالأغنام. واقعٌ مأزقٌ، لم يمنع المهربون، على الأقل، من تحديه بالتسلل عبر حدوده، جيئةً وذهاباً. سردُ الكاتب هنا، المتسم أحياناً بالمبالغة، يتطرق لحركات أولئك الرجال الجسوري، الخارق؛ وهي أساطيرٌ، على الأرجح، يتناولها الأهلون في أحاديثهم من جيل لجيل، مستقرة هكذا في لا وعي الكاتب، منذ طفولته. سمة موحدة لهذه الرواية، وتجري أحداث هذه الرواية في قرية صغيرة تمثل نموذجاً لأرض كردية واسعة، ويشعر بركات في سرد الأحداث شروعاً طبيعياً ومألوقاً لأناسٍ تتجاذبهم سلوكيات مخصصة ومصالح معينة، وهم فيها يُمثلون الأكثرية من السكان الكورد، ووصف المشهد بأنه مؤلم بامتياز، البرد القارص، كثرة الثلوج المتراكمة في انحاء القرية؛ مع ضعف الخدمات فيها، وأعلن بركات تمسك الكورد بمكانهم هذا، وهو الهاجس الأول في رواية (فقهاء الظلام) وهو المكان: والمكان عنده هو التصاق في تفكير الإنسان الذي يعيش فيه؛ وهو جزءٌ من هويته القومية وشخصيته، والمشهد يعرضه في صورة فوتوغرافية: (نُدفٌ أخيرة كسولة من الثلج تهوي على مهل. لا ريح. بضعة زرايزر تتشبث بسلك كهربائي يمرُّ فوق الساحة، وقد نفشت ريشها حتى اختفت أعناقها في السواد المرقط)^(١)، هذا المكان لم يختره بركات اعتباطاً؛ بل هو جزءٌ من فلسفته في اظهار القرى

(١) فقهاء الظلام، سليم بركات، كتاب مجلة الكرمل/٢، دار بيسان ببيرس، قبرص، عن اتحاد الكتاب

والصحفيين الفلسطينيين:٨.

الكبيرة المنتشرة في هذا الحدود المشتركة بين دولٍ ضاع بينها الشعب الكوردي، وهو يعرض معاناة السكان في الجو البارد الذي قلماً يتحملة بشر، ووجود أعمدة الكهرباء قد يوحي بوجود هذه الخدمة؛ لكن بعد التمعن قد لا نرى إلا عدداً قليلاً لديهم الكهرباء، ووجود أعداد من العصافير على أسلاك الكهرباء هو مظهرٌ آخر من مظاهر البؤس في هذه القرية، لأنَّ العصافير لا تبقى ساكنة مع الحركة في القرية، وانعدام الحركة يعني السبات داخل البيوت خوفاً من البرد؛ أو عدم وجود عمل يقوم به أهله. وقيامهم بنصب الفخاخ لهذه العصافير وصيدها له دلالة على الضائقة المادية لأهل القرية. وقيام الملا بيناف بإطلاق الزرزور الذي وقع في الفخ له معنى عطف الإنسان والرفق بالحيوانات: (اتجه بيناف إلى إحدى القرى، تاركاً وراءه سلسلة من آثار صفراء في رقعة الثلج الرقيقة. توقَّف فجأةً، وانحرف يمينا مسافة مترين من باب الحضيصة. كان ثَمَّت عصفورٍ يتخبَّط في فخٍ. انحنى والتقطه في دعة،... أرخى الملا ما بين فكي الفخ فطار العصفور مترنحاً^(١)، ما فعله بيناف مع هذا العصفور الصغير الذي وقع في الفخ له دلالة على مدى حبه للحياة؛ وإن كان حيواناً صغيراً يمكن أن يكون طعاماً لذيداً، لكنَّه أثر حرية الحيوان وحياته على سواه، ووعد ابنه بتعويضٍ عادلٍ عن صيده الذي فقده: (عسى أن يكون خيراً ما فعلناه يا بني، سأعوض عليك^(٢)، بهذا الكلام الذي له وقعٌ طيب على ولده، وعلمه أنَّ قيمة الحياة كبيرة جداً، ودلالة بركات على وقوع العصفور في الفخ كوقوع الكورد في فخ الدول الكبرى وبقائهم في أقفاصهم؛ ومحاصرين ضمن الدول التي اضيفوا إليها من دون موافقتهم وتحت ضغطٍ ووقتٍ لم يكونوا واعيين لهذا الفخ، وينتظرون ساعة الخلاص من حراسهم وجلاديهم وسجانيتهم. وتشير غرق القرية بالثلوج التي تملء أرجاءها إلى عدم وجود خدمات لإزالة الثلوج من طرقات القرية لتمكين السكان من مزولة أعمالهم، فهم في جِلٍ من أيِّ حركة خارج بيوتهم الطينية.

(١) فقهاء الظلام: ٧.

(٢) المصدر نفسه .

هواجس بركات القومية في نصه الروائي رواية فقهاء الظلام نموذجاً أ.د. محمد جواد حبيب و م.د. حسين أحمد سيتو

والبيوت الموجودة في القرية هي عبارة عن بناءٍ من الطين؛ يعيش في داخلها السكان المحليون: (... وخرج من الباب إلى الساحة المسوّرة، الساحة واسعة. تقع المضافة في الجانب الشمالي منها، حيث كان الملا "بيناف".

وفي الجهة الشرقية غرفٌ متلاصقة، ذات أبواب مستقلة تطل على الساحة. أما في الجهة الجنوبية الغربية فتقع الحظيرة، التي تجاورها مساحة صغيرة مسقوفة بصاجٍ متموج عارٍ، مخصصة للتتور)^(١)؛ بهذه الصفات وصف بركات البيوت في هذه القرية؛ إذ عدَّ بيت الملا بيناف نموذجاً لها، إذ إنّ جميع بيوت القرى تتصف بهذه الصفات، أو قد تكون أسوء منها في البناء، فهي محوّطة بسور كبير من جميع الجهات وله باب كبير تقع المضافة قريباً من الباب الرئيس للبيت، مع مساحة واسعة أمامها، أما غرف النوم فهي تكون عادة بعيدة من المضافة وتكون متلاصقة لبعضها البعض لتكون بمثابة مجمع عائلي بعيد عن المضافة والضيوف. ولَمَّا يقترب الأطفال منها حرصاً على راحة الضيوف؛ وبعيداً عن أنظارهم.

وفتح الأبواب يعني هجوماً من الخارج على شكل كُتْلٍ من الهواء البارد فضلاً عن كمية من الثلوج تدخلها، لذلك يكون صاحب الدار حريصاً على عدم فتحها إلا للحالات المهمة، ويصرخ بوجه من يفتحه دون سبب مع حالة من الغضب و الشتائم بوجه الصغار الذين يتطفلون على المضافة، ودخول أحد الأبناء يكون لأمرٍ ضروريٍ بالتأكيد: (... حين نظر الملا بيناف إلى ساعته للمرة الأولى إلى ساعة الحيب المعلقة بسلسلة فضية إلى زرٍ من أزرار سترته، دخل عليه كرزو أكبر أبنائه، مشيراً إليه من الباب كأنما يسأله أن يقترب ليحدثه، فتجاهله بيناف، مكماً حديثه مع أحد الجالسين. وحين الح الصبي بالإشارات الصامتة، صاح به والده في وقار، كعادته بين الناس: " تقدم، ولا تقف كاليربوع على الباب لقد جلدتُنا)^(٢)، هكذا هي بيوت القرى، حيث أبواب

(١) فقهاء الظلام: ٧.

(٢) المصدر نفسه: ١١ .

الغرف تطل على باحة الدار وليس هناك حاجز يمنع دخول الهواء أو الثلج إلى داخله؛ وفتح باب الغرف يؤدي إلى الساحة مباشرة دون عائق أو ستار، لذا من الصعب فتح تلك الأبواب خلال فصل الشتاء. والبيت جزءاً من المكان الذي تعيشه العائلة، وهو من الأمكنة المعتادة التي يعيشها سكان القرى في المناطق الجبلية والتي هي من أمكنة معيشة أبطال بركات في نصه الروائي، لأنَّ المكان الذي أختاره بركات لروايته يقع قرية من قرى قامشلي(قامشلو) التي تقع في الشمال السوري في نقطة التقاء الحدود بين سوريا والعراق وتركيا؛ مع امتداد لإيران، وهي مناطق سكن الكورد؛ بين أماكن كوردستان المقسمة بين هذه الدول؛ منذ اتفاقية سيفر وخطة تقسيم وطن كوردستان بين هذه الدول.

وبيوت القرية متناثرة بغير انتظام في أرجاء القرية؛ دون تخطيط هندسي وشوارعها مملوءة بالثلوج التي غطت التراب الذي يتكون منه الشارع: (يختفي الأب والابن في ما وراء البيوت المتناثرة شمالاً، أثار أقدمهما المتعرجة تكاد تلحق بهما تحت مكنسة الثلج البليدة، وفي مسافة أبعد، حيث تكاد تخوم المدينة الصغيرة هذه أن تلحق بتخوم تركيا)^(١)، وبيوت القرية الصغيرة البناء والكبيرة في المساحة المتروكة أمامها، مع ضياع ملامح الطرقات بينها لكثرة سقوط الثلج، حيث تحول اللون الثلج من البياض إلى لون أصفر بسبب اختلاط الطين ببياض الثلج. وللأمكنة عند بركات قدسية كبيرة لا تقل عن قدسية أهل الأمكنة أنفسهم فهم جزء من المكان؛ فقد ولدوا وتربوا أيضاً، ولها ترابط وثيق مع بيئتهم وعند الحديث عن السكان فيعمد بركات إلى ذكر أمكنة وجودهم وانتمائهم إليها قبل العشيرة، وهو يستنطق الشجر والأرض والحجر وحتى الهواء ليجري معها حواراً حول معاناة شعبه وحقهم في الحياة والحرية على أرضهم؛ وبراءته المعهودة ليرسم صورة الحياة عند هذا الشعب الذي قُسم بين أطرافٍ أربع، ومحاولة هذه الأطراف لإذابتهم ضمن مجتمعهم وعدم منحهم حقهم في العيش ضمن وطن واحد يجمعهم، وبما أنَّ الحدود المشتركة بين هذه الدول الأربع والذين يعيشون

(١) فقهاء الظلام: ١٩ .

هواجس بركات القومية في نصه الروائي رواية فقهاء الظلام نموذجاً أ.د. محمد جواد حبيب و م.د. حسين أحمد سيتو

على كل أطراف المكان الذي حدده بركات مسرحاً لروايته هم من قومية واحدة ومن عوائل فرّق الخط الحدودي بينهم؛ ونقاط المراقبة الحدودية مسانداً بالألغام والأسلاك الشائكة، فقد تمكن العديد من أهالي القرى المجتمعة على هذا الحدود من التسلل والمتاجرة بالبضائع على شكل التهريب، وفتحوا عدة طرق بين الألغام لتهريب البضائع من كل الجهات؛ كل حسب حاجة الآخر: "يتعدون الحدود. ينتقلون من التبغ إلى الأفيون....] لم يكن خافياً على أحد أنّ "مجيدو عفدي ساري" قد عبر الحدود إلى تركيا، وأنّه صار واسطة، من نصيبين إلى ديار بكر المدينتين التركيتين. فهو يواكب البغال المحملة بالتبغ الذهبي حتى الأسلاك، ليسلمها لمن يتولى الجانب الآخر." (١)، هذه التجارة توجد عند أكثر نقاط الحدود الدولية؛ وحتى لمن كانوا من قوميات مختلفة. وتعدّ أمكنة السكن هاجساً مهمة من هواجس القومية وهو عنصر مهم لا يمكن الاستغناء عنه، حيث إنّه يوحد الشعب ويُعطيه ذريعة للتمسك بترايه الذي يعيش عليه؛ وهو الجزء المهم من الهوية القومية الذي يلتصق به ولا يفارقه. ومعيشتهم من هذه الأرض فهم يزرعونها ليأكلوا من زراعته؛ وليعتاشوا منها حاضراً كما كانوا ماضياً، مستقبلاً: (لم يخف عليها، بالطبع، أنّ الدفتر كان خاصاً بالفراسخ المزروعة قمحاً وبطيخاً في قرية موسيسانا، حيث التدوين يتم.) (٢)، وبحسب هذا التدوين فإنّ الحنطة تزرع فيها وتستعمل كغلال لموسم الشتاء القارص، إذ يصنع الأهالي الخبز والبرغل وأنواع الطعام الأخرى، كما يُزرع البطيخ في نفس الأرض ليقوى به الأرض للسنوات القادمة، وكما يُستفاد منه كفاكهة في الصيف وبيع الفائض منه والاستفادة من المستهلك منه كعلف للحيوانات، وكذلك استخدام الحَب الموجود فيه جرزات أو بذور لزراعتها في السنوات القادمة. وكأن بركات يريد الإيحاء بأن المكان الذي يحتوي الأحداث مكان ولا مكان في آن واحد طالما ظلت كردستان رقعة لا تمتلك كينونتها الذاتية وكيانها الخاص، وقد أدى هذا الإحساس بانعدام

(١) فقهاء الظلام: ٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ٧٨.

الكيان إلى الإحساس بانعدام الذات، وهو الأمر الثاني الممثل لملاحم اللا مألوف في هذه الرواية .

وتبدو الأسماء عند بركات غير مألوفة؛ فهي لا تكون على شكل الأسماء المتداولة في المحيط الذي يعيش فيه شخصياته، والأسماء ليست اعتباطية؛ لكونها أسماء غريبة أول الأمر ولكن عند التدقيق منها وارجاعها إلى مؤثراتها التي تدور في ذهن بركات تزول الغرابة فيها، فهي لا تحمل دلالة السعادة؛ وهي تمثل الحقيقة والمقصدية عند بركات وتُظهر رؤيته للواقع التي تعيشه هذه الشخصيات، فلكل أسم من أسماء شخصياته له خصوصية وسر لهذه التسمية، فهم يُمثلون واقعاً وهدفاً يقصده الكاتب، لذا ليس هناك مألوفية في هذه الأسماء في غير واقعه المعاش، فضلاً من أسماء لها وجود في مناطق متجاورة لهم؛ وسنوضح دلالات بعض هذه الأسماء المتداولة هنا، مع التناور مع بركات لأسباب اختياره لهذه الأسماء: بيناف، أسم ليس له دلالة منطقية لكونه لا يُمثل معنى مألوفاً في محيطه المتداول، ودلالة الظاهرة: بلا أسم؛ أي الذي لا يحمل اسماً، وهذا الاسم كالشبح الذي لاوجود له، مع الدخول في عالم بركات وعجائبية تفكيره لاختيار أمكنته وأسماء شخصياته بصورة غرائبية فضلاً عن رمزيتها في كثير من أوصافه، وأحداثه داخل نصه الروائي، وبيناف عند التحقق من الاسم ورمزيتها ودلالته داخل النص يرجع إلى الشعب الذي يتحدث عنه بركات، الشعب المقسم بين دولٍ أربع؛ وهذا الشعب مختلف في حقيقته عن الناس الآخرين أي الطرف المهيمن على السلطة والثقافة في أيٍّ من الأجزاء الأربعة، وهم يُلقبون باسمهم وليس اسم الشعب المغلوب على أمره؛ فهم يُلقبون في جزء منه وهم الأكثرية (بأترك الجبال) ممنوعٌ له التحدث علناً بلغته القومية ولبس لباسه القومي، فضلاً عدم وصوله إلى بعض المناصب العليا، مع عدم قبوله في قسم الكليات الحساسة الأمنية، وفي جزءٍ آخر يُمنع من امتلاك هوية شخصية له فهو دون هوية وعددهم بالآلاف في مناطق أخرى، عليهم واجبات وقت الحاجة مع أماني بمنحهم هوية وعند الانتهاء من خدماتهم يُسرحون دون حقوق، وفي مناطق أخرى يُلصق بهم تهمة التمرد، بمجرد أن تطالب بحقوق ثقافية أو مدنية

هواجس بركات القومية في نصه الروائي رواية فقهاء الغلام نموذجاً أ.د. محمد جواد حبيب و م.د. حسين أحمد سيتو

تتعامل كإرهابي يجب محاربتهم والقضاء عليهم كونهم يُمثلون تهديداً على أمن الدولة، ويجب بترهم نهائياً وعدم السماح بنشر أفكارهم الهدامة، فهم دون أسماء، بل يحملون أسماء الذين يُهيمنون عليهم بالقوة والتهجير ومسح هويتهم القومية، مع التظاهر والتمسك بالهوية الدينية التي يتخفون تحت عباءتها لتحقيق أهداف قومية وتوسعية لهم على حساب المسكوت عنهم؛ والمهمشين. وبيناف يُمثل كبير القرية وهو الملا، وله عندهم مكانة لقدسية الدين عند الكورد، الذين يخضعون له طائعين دون أن يناقشوا مآرب الآخرين لهم.

إنَّ اختيار اسم بيناف أو الملا بيناف له دلالة رمزية كبيرة في نص بركات الروائي، فهو مجهول الهوية بالنسبة للآخرين وله سطوة الدين الذي هو دين الدولة التابع لها أو المهيمنة على قوميته، لكون قومه أيضاً لا يحملون اسماً مثلهم، وهم مجرد أرقام في احصاء هذه الدولة أو تلك، وهو يحمل هموم من يعيشون في مكانهم الذي لا يحظي بخدمات وحقوق غيرهم ممن يعيشون معهم في مناطق أخرى ولهم الأفضلية في كل شيء.

بيناف اسم مبهم دون اتصاله أو الصاقه بشخص أو شيء آخر. وبيناف اسم دون وجود في حقيقته المطلقة؛ لكنه في حقيقة الواقع مجرد من الوجود وليس له حيز من الفراغ، فهو يُمثل الكورد في تجاهل أسماء وجودهم الحقيقي في الواقع الذي يُعيشونه. وقد عانى الكورد من الشعور بعدم الاستقرار ومرارة الحاجة إلى الكيان المحدد الثابت الذي يشيع الاطمئنان، وهذا القلق "الوجداني" يظل ماثلاً طالما كان الكيان مغيباً، ومن ثم فإن المرء يكون في ارتحالٍ معنويٍّ أو ماديٍّ مستمر، و"كوجري"- أي المتقلُّ أو المرتحل أو الذي لا وطن له - وهو اسم والد الملا بيناف الذي لا اسم له؛ وكذلك كوردستان لا اسم لها إلا في مخيلة الكورد. وهو يمثل موطن الكورد فهو بلا هوية وكذلك الكورد، وأولاده الأربعة تمثل أجزاء كوردستان الأربع المجزَّءة. والكوجري الذي يجول ويرحل من مكانٍ إلى آخر ليس له مكان محدد يعيش فيه؛ فهو دائم الترحال والتنقل، وغير مقيم في بقعة محددة كباقي القوميات.

ولهذا تُرك دون موطن له؛ وليس له الحق في امتلاك عقار في الدولة، لكونه دائم الترحال، وهو جزءٌ من سياسة الدولة التي قسمت كردستان: أن لا يكون للكورد وطن.

واسم زوجه لا يخرج من غرائبهم، فهي "برينا" ودلالة اسمها هي الجرح، وهو ليس اسماً دون رمز؛ والجرح هو الذي تركه تقسيم كردستان إلى أجزاءٍ أربع بين دول والقرية التي اختارها بركات مسرحاً لروايته تقع بين هذه الدول الأربع، لذلك "برينا" أو الجرح ما هو إلاّ دلالة على هذا الألم الذي بقي في القلب ولا يندمل على مر السنين إلاّ بعودة هذه الأجزاء إلى وحدتها وتكاملها من جديد.

وأسماء أبنائه كلها كردية دلالة على التمسك بالأرض وعدم التفريط بأي جزءٍ منها، ولأسماء أحاديث عند بركات فهو لم يخرج من بني قومه في اطلاق الأسماء على شخصياته، وللملا بيناف أربعة أولاد؛ يمثلون أطراف كردستان المقسم، ومجيء الخامس له دلالة مهمة في تسميته وحياته ورمزية وجوده، (بيكه س) الذي ليس له أحد، ولكن دلالة الوحيد قد تكون بعيدة كل البعد في فهمه عند الناس؛ ولكن عند تفكير بركات له دلالة أخرى، فله أربعة أشقاء، وكذلك أعمام وأخوال؛ فأين الوجدانية في كل هؤلاء الناس الذين يُحيطون به من كل صوب، وكذلك الغرابة في ولادته وحياته: (على أية حال، لم يكن هذا الصباح كغيره من الصباحات. جاءه الرقم الخامس في سلسلة نسله، وكان صبيّاً، جرت تسميته على الأقل في رأس والده، باسم بيكه س)^(١)، ولم يتردد الملا في تسمية ابنه الخامس؛ كأنما كان يتوقعه لذلك اسماء فوراً به، وهو أي الملا يحفظ ساعة ولادته بدقة متناهية: (في العاشرة وسبع دقائق، على وجه التحديد، أي حين نظر الملا بيناف للمرة الأولى إلى ساعة جيبه المعلقة بسلسلة فضية إلى زر من أزرار سترته، [...]) الخبر يتسرب من الغرفة الموصدة الباب التي تقف أخت الملا على بابها، والوجوم يأخذ طريقه إلى وجوه الزائرين. التهنتة تستحيل، الآن، إلى نوع من التطفل: أحقاً.. سيدنا الملا؟ وقبل أن يكمل السائل يرد الملا: هبة

(١) فقهاء الظلام: ١١.

هواجس بركات القومية في نصه الروائي رواية فقهاء الظلام نموذجاً أ.د. محمد جواد حبيب و م.د. حسين أحمد سيتو

الله أيها الجار. هبة الله^(١)، بهذه الدقة الشديدة أعلن ولادة الطفل الخامس من نسل الملا بيناف، وهو صبي أسماه الملا فوراً؛ اطلاق الأسماء ليست بمحنة، فكثير من الرجال والنساء يهيوون أسماء لأولادهم قبل الولادة بكثير، لكن كان العجب في اختيار الاسم الذي أطلقه الملا، وبيكه سه ليس الغرائبية في اسمه بل في حياته التي لا تصدق، فهو قد ولد في الصباح كما حدد الملا ساعة الولادة العاشرة صباحاً، لأن نموّه متسارع جداً: (لم يجد الأب ما يقوله، ليجعل التعارف ممكناً بين أبنائه الأربعة من جهة، وبين هذا الوليد الذي يختزل السنوات، كل ساعة من جهة أخرى)^(٢)، ولزواج بيكه س رأي آخر عند بركات، في يوم ولادته في المساء طلب من أمه وأبيه أن يتزوج: (زحف بيكه س على ركبتيه مقترباً من فراش أمه، بالطريقة ذاتها التي اقترب بها من الموقد: اسمعاني بادرهما، وهو عارف انهما سيتسمعان حتى رؤوس أناملهما: أريد أن أتزوج، وصمت ليقرأ شفاههما التي ارتخت قليلاً، ووجهيهما الخاليتين من أي تعبير. وكأنما أراد أن يُقيدهما أكثر بسحر يزيد ارتخاءهما)^(٣)، بهذه العبارات خاطب الوليد الذي لم يمض على ولادته سوى ساعات قليلة؛ والحيرة والهلع لم تفارق وجه والده ووالدته، كيف سيتزوج؟ ومن هي التي تقبل الزواج من وليد لازال الجيران يأتون للمباركة بولادته؟ أسئلة حيرى وأجوبة أكثر حيرة؛ إن وجد الملا بيناف له جواباً، همست الأم مع نفسها ودمدمت وكذلك فعل الأب الذي لم تفارق الدهشة وجهيهما: (سيتزوج همست الأم، فأفاق الأب سيتزوج، وبدا أن كليهما لا يفقهان معنى الكلمة، عدا بيكه س المبتسم من هذا الوجود الفكاهي: نعم أنت تعرف أعمامي بالطبع، وفي مقدرتك أن تختار من بناتهم)^(٤)، وهذا الاصرار على الزواج من قبل الوليد الجديد له مغزى عند بركات، فهو لا يريد أن تطول مسألة الزواج لأنها لا تحمل عنده مجرد زواج؛ أو كما يفهم بأنّه مجرد غرائبية من أفكار بركات

(١) فقهاء الظلام: ١٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٧.

(٤) المصدر نفسه .

في نصه الروائي، عمل فنتازي من الأعمال التي تعنى بما وراء الخيال، لكنها تنم عن تفكير متمرس من بنان أفكار بركات الذي جمع أجزاء كوردستان في نسل بيناف، وهذا النسل يحتاج إلى دافع قوي ليحافظ على مساره الصحيح؛ طالما أولاده صغار في السن إذ لا يتجاوز الكبير منه عشر سنوات، وهؤلاء الأطفال يحتاجون إلى مرشد يدلهم إلى المسار الصحيح؛ وهذا البشير أو الوافد الجديد يحتاج إلى أرض خصبة لنمو هذه الأفكار ولنشر ما يحمله من ارهاصات في داخله؛ لذلك أراد الزواج، أي إيجاد الأرض الخصبة لنمو هذه المبادئ الذي يريد لها الانتشار، لذلك أراد الزواج، وزواجه مشروط بأعمامه، حتى يضمن الولاء لأفكاره: (لن يُصدقوا ما سنقول. نحن لم نصدق الأمر بعد، فمن سيهب ابنته من أجل كذبة يا بيكه س؟، فرد الأب: عليك أن تحاول يا أبي. لم يبق من الوقت الكثير، فاحتمد الأب: وقت من يا عجيب؟ من يهتم إذا بقي وقت أو لم يبق؟ ولماذا عليّ أن أنصت إلى إلحاحك هذا لتجعل المحنة أقسى؟ استرنا بحق الله، فأنت تُجهز علينا. لا، رد بيكه س^(١)، بهذه العبارات الحادة والنقاش المحتدم بين الأب وابنه نزل الأب عند رغبته وسارع إلى طلب ابنة أخيه لأبنة بيكه س الذي لا يتجاوز عمره ساعات، ولأهمية الوقت الذي يتطلب إيجاد الارضية الرحيبة لاحتضان وعي بيكه س؛ فقد سارع بيناف مع اخته إلى دار أخيه مَهْمَد ابن كوجري لطلب يد ابنته سينم: (أخي بادر الملا الرجل الآخر، الجالس محتضناً ركبتيه إلى صدره: جئت أسأل ابنتك سينم، وجمال بنظره على اخته وزوج أخيه^(٢)، وهكذا خطب الملا ابنة أخيه لابنه الذي سيكون معها الوعي الذي انبثق من طول الظلام الذي كان يُغطي كوردستان، و"سينم" - أي صديري - مثلٌ للصدر الذي استوعب الفكرة التي جاء بها بيكه س واحتواها وتبناها وكفل لها الديمومة، ولم يكن صدر أبله على الرغم من أن بركات كان يلحق بـ "سينم" صفة البلهاء دائماً بل كان صدر الواعي المدرك العارف بما جرى

(١) فقهاء الظلام: ١٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢.

هواجس بركات القومية في نصه الروائي رواية فقهاء الظلام نموذجاً أ.د. محمد جواد حبيب و م.د. حسين أحمد سيتو

وبما ينبغي أن يكون مسار الأمر عليه، غير أنه أراد بوصفه ذلك أن يعكس نعت الآخرين للمغامرين الأوائل؛ الذين يقودون الرعيل الأول من مشاعل الحرية للشعوب المغلوبة على أمرها، والتي تناضل من أجل حقوقها المشروعة في ايجاد مكان لهم تحت الشمس.

لقد ركز بركات الشعور بانعدام الذات في الاسم الذي اختاره لأهم شخصيات روايته وهو "الملا بيناف بن كوجري". فمن صُلب بيناف، الذي يعني في العربية من لا اسم له، ابن كوجري، الذي يعني من لا استقرار له أو المتقلّب، ومن أم أسماها: برينا، أي الجرح، ولد (بيكه س) الذي يعني الوحيد أو من لا أهل له وهو الذي بُنيت الرواية عليه، فهذه أسماء مصاغة بحيث تسهم دلالاتها في تضبيب شخوص أصحابها، ويلتقي بذلك اللا مألوفان: المكان والإنسان لكي يغيرا رتبة الوضع ونمطيته. وأولاد الملا الأربعة من زوجته الأولى، أما بيكه س فهو من برينا، يجتمع بيناف مع برينا ليولد بيكه س الذي لا أحد له، فهو ابن المعاناة؛ والجرح الذي لم يلتئم منذ تقسيم كردستان، فهو يُمثل الأمل الذي يُعيد شمل لأجزاء الأربعة، وهو الطليعة لهذه الوحدة، سواءً أكان فكراً أم حزياً. وولادة بيكه س آخر يعني وآخر؛ له دلالة واضحة على أنّ الوعي والفكر الذي زرعه بيكه س الأول قد أثمر وتم تحقيق هدفه بنشر الفكر القومي في الأجزاء الأربعة من كردستان.

تُعد اللغة إحدى أهم هواجس الهوية القومية المهمة من عناصر القومية، ولكون اللغة له أهمية كبيرة عند بركات لذلك عمد إلى إبراز عنصر لغة الأم في نصه الروائي، محاولاً الخروج من هيمنة لغة المركز التي تحول الحلول مكان لغة الأم: (دخل الرقيب برفقة شرطيين إلى ساحة الدار. كان عفدي ساري وأولاده الستة الفتيان، وزوجه، وابنته، في استقبال الزائرين، بوجهٍ يبدو عليها احتقار واضح، برغم انها تكلفت بعض الترحيب غير الودود: تفضّل حضرة ال...، بلكنة تختلط فيها الحروف الكوردية بالعربية، شكراً رد الرقيب،^(١)، بهذه

(١) فقهاء الظلام: ٤٨.

الكلمات القليلة أوضح بركات مدى سيطرة لغة المركز على اللغة القومية لأهل القرية؛ ولها دلالة واضحة على مدى تأثر السكان بكون عناصر الشرطة في المنطقة الكوردية ليسوا كورداً، ولا يتحدثون لغة أهل القرية التي يتولون الحكم فيها، وهيمنة لغة المركز على لغة الأم لسكان القرية ينسحب إلى أمور أخرى منها الثقافة التي تموت تحت ثقافة المركز لعدم اهتمامها بثقافة أهل المنطقة المغايرة للغتهم وثقافتهم؛ إنَّ عدم الاعتراف بلغتهم واعتبارها لغة ميته يؤدي إلى ضياع حضارة وثقافة ذلك الشعب، وتختفي لغتها لتحل مكانها لغة المركز المتسلطة على مقاليد الأمور كافة ومن ضمنها اللغة القومية وثقافتها وحضارتها التي أصبحت مهددة بالانقراض والضياع؛ ونشوء جيل جديد منسي حضارياً وثقافياً وجهلة للغتهم الأم.

الخاتمة:

في ختام البحث توصل الباحث إلى أن:

- ١- الهوية القومية عند بركات هي مجموعة من العناصر المتداخلة لتكوينها.
- ٢- المكان عنده كل أرض كوردستان، واستعاض عنها بمكان في شمال سوريا يقع بين الأجزاء المقسمة (بين العراق وتركيا وسوريا وإيران هو امتداد للعراق).
- ٣- ملا بيناف يمثل كوردستان بأجزائه الأربعة من خلال أبنائه الأربعة وهم صغار أكبرهم عمره عشر سنوات، طفولة انشاء الهوية القومية.
- ٤- الأبن الخامس الذي يحمل أسم بيكه س، هو الوعي الذي يدخل كوردستان؛ وينتشر بسرعة، لأن بيكه س يكبر ويتزوج خلال يوم واحد.
- ٥- زوجة بيكه س هي منبع التواصل وحمل الوعي فاسمها الصدر الرحب (سينم).
- ٦- من مكلمات الهوية القومية للغة كونها هوية ناطقة.
- ٧- اسم زوجة ملا بيناف برينا "الجرح" هي تمثل جرح كوردستان الدائم.

***Barakat's National Obsessions in His Novel "The Novel of
Darkness Scholars" as a Model***

Prof. Dr. Mohammed Jwad Habeeb

Lect.Dr. Hussein Ahmed Seeto

Abstract:

Saleem Barakat aims at dismantling his identity codes in the text of the feature (darkness scholars), through several factors which include: Human rights belong to a specific group of people first, and spot the land on which they lived secondly; and the mother tongue spoken, or is their third, and man on the one hand it relates to land; feelings and aspirations of his interests , as well as the use of the Kurdish names blade persons; the original names for. Identity is a set of overlapping elements among them to create awareness in identity elements. It has the object and purpose; creating a perfect society in the creed thoughts are struggling to achieve; this group of the same qualities and interests, and deliberately to create an integrated construction of that group. The corresponding rights, clear identity which can be discovered, the matter of language. And carries the concerns of his people all through the move in several countries; which was his own nationality, trying to prove that one homeland, even if the fragmentation to the dismemberment of several residence strangers on this nation under the name of the unity of the nation; which are not entitled to possess or even Barzani living in their land, who were born or raised. The kurdish issue occupies an important aspect of the work of the IMP Barakat, petty cash, and perhaps the writings entitled: CV boyhood; darkness scholars; feathers; the most prominent, reflecting the suffering of Kurds in their UNDIVIDED; their awareness of their cause, and pretend Barakat transparent poetic language questioned by the trees and quarantine birds were gathered, and turned into a dialog with the dexterity and high-tech shares those assets in humanitarian fee a fee amalgamation and the events of his novels in small villages represent a wide land of Prime Minister Nouri Al Maliki .